صاحبه كيف يكون مؤمناً ، ولا يكمُل إيمان المؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأيضاً من العقل للمؤمن أن يحاول أن يهدى الكافر ؛ لأن المؤمن صُحح سلوكه بالنسبة للآخرين ، ومن الخير للمؤمن أيضاً أن يُصحِّح سلوك الكافر بالإيمان .

لذلك من الخير بدل أنْ تدعوَ على عدوك أن تدعو له بالهداية ؛ لأن دعاءك عليه سيُزيد من شقائك به ، وها هو يدعو صاحبه ، فيقول :

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾

يريد أنْ يُعلمه سبيل الإيمان فى استقبال النعمة ، بأنْ يردَّ النعم إلى المنعم ؛ لأن النعمة التى يتقلَّب فيها الإنسان لا فضْلَ له فيها ، فكلها موهوبة من الله ، فهذه الحدائق والبساتين كيف آتتْ أُكُلها ؟ إنها الأرض التى خلقها الله لك ، وعندما حرثْتها حرثْتها بآلة من الخشب أو الحديد ، وهو موهوب من الله لا دَخْلَ لك فيه ، والقوة التى أعانتك على العمل موهوبة لك يمكن أن تُسلبَ منك فى أىِّ وقت ، فتصير ضعيفاً لا تقدر على شىء .

إذن : حينما تنظر إلى كُلِّ هذه المسائل تجدها منتهية إلى العطاء الأعلى من الله سبحانه .

خُذْ هذا المقعد الذى تجلس عليه مستريحاً وهو فى غاية الأناقة وإبداع الصَّنْعة ، من أين أتى الصُّنَّاع بمادته ؟ لو تتبعتَ هذا لوجدته

قطعةَ خشب من إحدى الغابات ، ولو سألتَ الغابة : من أين لك هذا الخشب لأجابتك : من الله .

لذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه وتعالى الأدب في نعمته علينا ، بقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة]

هذه الحبة التي بذرتها في حقلك ، هل جلستَ بجوارها تنميها وتشدّها من الأرض ، فتنمو معك يوماً بعد يوم ؟ إن كل عملك فيها أن تحرث الأرض وتبذر البذور ، حتى عملية الحرث سخَّر الله لك فيها البهائم لتقوم بهذه العملية ، وما كان بوُسْعك أنْ تُطوّعها لهذا العمل لولا أنْ سخرها الله لك ، وذلّلها لخدمتك ، كما قال تعالى : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

ما استطعت أنت تسخيرها .

إذن : لو حلَّلْتَ أيَّ نعمة من النعم التي لك فيها عمل لوجدت أن نصيبك فيها راجع إلى الله ، وموهوب منه سبحانه . وحتى بعد أن ينمو الزرع ويُزهر أو يُثمر لا تأمن أن تأتيه آفةٌ أو تحلُّ به جائحة فتهلكه ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة]

كما يقول تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) ﴾ [القلم]

---

(١) ليصرمنها : أي : حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء . [تفسير ابن كثير ٤٠٦/٤] .

وكـذلك فى قوله تعـالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩)﴾ [الواقعة]

هذا المـاء الذى تشربونه عَذْباً زلالاً ، هل تعـرفون كـيف نزل ؟ هـل رأيتـم بخـار المـاء الـصـاعـد إلى الجـو ؟ وكـيـف ينعـقـد سحـابـاً تسـوقه الريح ؟ هل دريْتُم بهـذه العملية ؟ ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠)﴾ [الواقعة]

أى : مِلْحاً شديداً لا تنتفعون به .

فحينما يمتنُّ الله على عبيده بأىّ نعـمة يُذكّرهم بما يَنقضها ، فهى ليست من سَعْيهم ، وعليـهم أنْ يشكروه تعالى عليهـا لتبقى أمـامهم ولا تزول ، وإلاَّ فَلْيحافظوا عليها هم إنْ كانت من صُنْع أيديهم !

وكـذلك فى مسـالة خَلْـق الإنسـان يُوضّح سـبـحانه وتعـالى أنه يمنح الحيـاة وينقضها بالمـوت ، قال تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠)﴾ [الواقعة]

فإنْ كـنتم أنتم الخالقـين ، فحـافظوا عليه وادفـعوا عنه الـموت . فذكر سبحانه النعمة فى الخَلْق ، وما ينقض النعمة فى أصل الخَلْق .

أمـا فى خَلْق النـار ، فـالأمـر مـخـتلف ، حـيـث يقـول تعـالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ[1] (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢)﴾ [الواقعة]

---

(١) أورى القادح زنده : أخرج منه النار . [القاموس القويم ٢/٣٣٣] . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٩٦) : « أى : تقدحون النار من الزناد وتستخرجونها من أصلها » .

فذكر سبحانه قدرته فى خَلْق النار وإشعالها ولم يذكر ما ينقضها ، ولم يقُلْ : نحن قادرون على إطفائها ، كما ذكر سبحانه خَلْق الإنسان وقدرته على نقضه بالموت ، وخَلْق الزرع وقدرته على جعله حطاماً ، وخَلْق الماء وقدرته على جعله أجاجاً ، إلا فى النار ، لأنه سبحانه وتعالى يريدها مشتعلة مضطرمة باستمرار لتظل ذكرى للناس ، لذلك ذيَّل الآية بقوله تعالى : ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ(١) (٧٣)﴾ [الواقعة]

كما نقف فى هذه الآيات على ملمح من ملامح الإعجاز ودقَّة الأداء القرآنى ؛ لأن المتكلم ربٌّ يتحدث عن كل شىء بما يناسبه ، ففى الحديث عن الزرع - ولأن للإنسان عملاً فيه مثل الحرْث والبذْر والسَّقْى وغيره - نراه يؤكد الفعل الذى ينقض هذا الزرع ، فيقول : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥)﴾ [الواقعة] حتى لا يراودك الغرور بعملك .

أما فى الحديث عن الماء - وليس للإنسان دخل فى تكوينه - فلا حاجة إلى تأكيد الفعل كسابقه ، فيقول تعالى : ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا.. (٧٠)﴾ [الواقعة] دون توكيد ؛ لأن الإنسان لا يدعى أن له فضلاً فى هذا الماء الذى ينهمر من السماء .

نعود إلى المؤمن الذى ينصح صاحبه الكافر ، ويُعلِّمه كيف

(١) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ، يعنى بالمقوين المسافرين ، واختاره ابن جرير ، وقال : ومنه قولهم : أقوت الدار إذا رحل أهلها . وقال مجاهد : يعنى المستمتعين من الناس أجمعين ، وكذا ذكر عن عكرمة . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٩٧) : « وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن الحاضر والبادى من غنى وفقير ، الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع » .

يستقبل نعمة الله عليه : ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ..(٣٩)﴾ [الكهف] (لَوْلاَ) بمعنى : هلاَّ وهي للحثِّ والتحضيض ، وعلى الإنسان إذا رأى ما يعجبه في مال أو ولد حتى لو أعجبه وجهه في المرآة عليه أن يقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

وفي الحديث يقول رسول الله ﷺ : « ما قيل عند نعمة : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، إلا ولا ترى فيها آفة إلا الموت »[1] .

فساعة أن تطالع نعمة الله كان من الواجب عليك ألاَّ تُلهيكَ النعمة عن المنعم ، كان عليك أن تقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، أي : أن هذا كله ليس بقوتي وحيلتي ، بل فضل من الله فتردّ النعمة إلى خالقها ومُسديها ، وما دُمْتَ قد رددْتَ النعمة إلى خالقها فقد استأمنْتَهُ عليها واستحفظته إياها ، وضمنْتَ بذلك بقاءها .

وذكرنا أن سيدنا جعفر الصادق - رضي الله عنه - كان عالماً بكنوز القرآن ، ورأى النفس البشرية ، وما يعتريها من تقلُّبات تعكر عليها صَفْو الحياة من خوف أو قلق أو همٍّ أو حزن أو مكر ، أو زهرة الدنيا وطموحات الإنسان فيها .

فكان رضي الله عنه يُخرج لهذه الداءات ما يناسبها من علاجات القرآن ، فكان يقول في الخوف : « عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾ [آل عمران] فإني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَانقَلَبُوا[2] بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ (١٧٤)﴾ [آل عمران]

---

(١) عن أنس بن مالك قال قال ﷺ : « ما أنعم الله على عبد من نعمة في أهل ولا مال فقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت » أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٤٠) وقال : « رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه عبد الملك بن زرارة وهو ضعيف » .

(٢) انقلبوا : رجعوا . قال ابن منظور في اللسان : « الانقلاب : الرجوع مطلقاً » . [لسان العرب - مادة : قلب] .

وعـجبتُ لمن اغتـمَّ - لأن الغَمَّ انسـداد القلب وبلبلة الخـاطر من شيء لا يعـرف سببـه - وعجبتُ لمن اغـتمَّ ولم يفزع إلى قـول الله تعالى : ﴿ لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فإني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] ليس هذا وفقط ، بل : ﴿ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] وكأنها (وصْـفة) عامة لكل مؤمن ، وليـست خاصة بنبيِّ الله يونس عليه السلام .

فـقـولُ المـؤمن الذى أصـابه الغم : ﴿ لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ أَنتَ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : لا مفزع لى سواك ، ولا ملـجأ لى غيرك ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] اعتراف بالذنب والتقصـير ، فلعل ما وقعتُ فـيـه من ذنب ومـا حدث من ظـلم لنفـسى هو سـبب هذا الغم الذى أعانيه .

وعـجـبتُ لمـن مُكر به ، كـيف لا يفـزع إلـى قـول الله تعـالى : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر] فـإنى سمـعت الله بعقـبهـا يقول : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر] فالله تبارك وتعالى هو الذى سيتولى الرد عليهم ومقابلة مكرهم بمكره سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وعجـبت لمن طلب الدنيا وزينتهـا - صاحب الطموحـات فى الدنيا المتطلع إلى زخرفها - كيف لا يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [الكهف] فـإنى سمـعت الله بعـقـبهـا يقـول : ﴿ فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الكهف] فإن قلتها على نعمتك حُفظتْ ونمَتْ ، وإن قلتها على نعمة الغير أعطاك الله فوقها .

والعجيب أن المؤمن الفقير الذى لا يملك من متاع الدنيا شيئاً يدل صاحبه الكافر على مفتاح الخير الذى يزيده من خير الدنيا ، رغم ما يتقلّب فيه من نعيمها ، فمفتاح زيادة الخير فى الدنيا ودوام النعمة فيها أن نقول : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ (٣٩)﴾ [الكهف]

ويستطرد المؤمن ، فيُبيِّن لصاحبه ما عيَّره به من أنه فقير وهو غنى ، وما استعلى عليه بماله وولده : ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩)﴾ [الكهف]

ثم ذكّره بأن الله تعالى قادر على أنْ يُبدِّل هذا الحال ، فقال :

﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا[1] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠)﴾

وعسى للرجاء ، فإن كان الرجاء من الله فهو واقع لا شكَّ فيه ؛ لذلك حينما تقول عند نعمة الغير : (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) يعطيك الله خيراً مما قُلْت عليه :(ما شاء الله لا قوة إلا بالله) ، وإن اعترفتَ بنعمة الله عليك ورددْتَ الفضل إليه سبحانه زادك ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ (٧) ﴾ [إبراهيم] .

فقوله : ﴿فَعَسَىٰ رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِى خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ (٤٠) ﴾ [الكهف] أى : ينقل مسألة الغنى والفقر ويُحوِّلها ، فأنت لا قدرة لك على حفظ هذه النعمة ، كما أنك لا قدرةَ لك على جلْبها من البداية . إذن : يمكن أنْ يعطينى ربى نعمة مثل نعمتك ، فى حين تظل نعمتك كما هى ، لكن إرادة الله تعالى أن يقلبَ نعمتك ويزيلها :

(١) الحسبان : العذاب المحسوب المقدَّر كالصواعق المدمرة . [القاموس القويم ـ ١/١٥٢] .

﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ (٤٠) ﴾ [الكهف] هذه النعمة التى تعتز بها وتفخر بزهرتها وتتعالى بها على خَلْق الله يمكن أنْ يرسلَ الله عليها حُسْباناً .

والحُسْبان : الشيء المحسوب المقدَّر بدقّة وبحساب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] والخالق سبحانه وتعالى جعل الشمس والقمر لمعرفة الوقت : ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ (٥) ﴾ [يونس] ونحن لا نعرف من هذه عدد السنين والحساب إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطةً على نظام دقيق لا يختلّ ، مثل الساعة لا تستطيع أنْ تعرفَ بها الوقت وتضبطه إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطة ، والشيء لا يكون حسباناً لغيره إلا إذا كان هو نفسه مُنْشأ على حُسْبان .

وحَسِب حُسْباناً مثل غفر غفراناً ، وقد أرسل الله على هذه الجنة التى اغترَّ بها صاحبها صاعقة محسوبة مُقدَّرة على قَدْر هذه الجنة لا تتعدَّاها إلى غيرها ، حتى لا يقول : إنها آية كونية عامة أصابتنى كما أصابت غيرى .. لا . إنها صاعقة مخصوصة محسوبة لهذه الجنة دون غيرها .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) ﴾ [الكهف] أى : أن هذه الجنة العامرة بالزروع والثمار ، المليئة بالنخيل والأعناب بعد أن أصابتها الصاعقة أصبحتْ صَعيداً أى : جدباء يعلُوها التراب ، ومنه قوله تعالى فى التيمُّم : ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا (٤٣) ﴾ [النساء] ليس هذا وفقط ، بل ﴿ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) ﴾ [الكهف] أى : تراباً مُبلّلاً تنزلق عليه الأقدام ، فلا يصلح لشيء ، حتى المشى عليه .

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

(غَوْراً) أى : غائراً فى الأرض ، فإنْ قُلْت : يمكن أنْ يكونَ الماء غائراً ، ونستطيع إخراجه بالآلات مثلاً ، لذلك يقطع أمله فى أىِّ حيلة يفكر فيها : ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ [الكهف] أى : لن تصل إليه بأىِّ وسيلة من وسائلك ، ومن ذلك قوله تعالى فى آية أخرى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك]

لاحظ أن هذا الكلام من المؤمن لصاحبه الكافر مجرد رجاء يخاطبه به : ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي ..﴿٤٠﴾﴾ [الكهف] رجاء لم يحدث بَعْد ، ولم يصل إلى إيقاعيات القدر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾

هكذا انتقل الرجاء إلى التنفيذ ، وكان الله تعالىٰ استجاب للرجل المؤمن ولم يُكذِّب توقّعه ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف] أحيط : كأنْ جعل حول الثمر سوراً يحيط به ، فلا يكون له منفذ ، كما قال فى آية أخرى : ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس]

وتلاحظ أنه سبحانه قال : ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف] ولم يقُلْ مثلاً : أحيط بزرعه أو بنخله ؛ لأن الإحاطة قد تكون بالشىء ، ثم يثمر بعد ذلك ، لكن الإحاطة هنا جاءت على الثمر ذاته ، وهو قريب الجنى قريب التناول ، وبذلك تكون الفاجعة فيه أشدّ ، والثمر هو الغاية والمحصّلة النهائية للزرع.

ثم يُصوِّر الحق سبحانه ندم صاحب الجنة وأسفه عليها : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا (٤٢) ﴾ [الكهف] أى : يضرب كفّاً بكفٍّ ، كما يفعل الإنسان حينما يفاجئه أمر لا يتوقعه ، فيقف مبهوتاً لا يدرى ما يقول ، فيضرب كفّاً بكفٍّ لا يتكلم إلا بعد أن يُفيق من هَوْل هذه المفاجأة ودَهْشتها .

ويُقلِّب كفَّيْه على أىِّ شىء ؟ يُقلِّب كفيه ندماً على ما انفق فيها ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا (٤٢) ﴾ [الكهف] خاوية : أى خَربة جَرْداء جَدْباء ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

ومعلوم أن العروش تكون فوق ، فلما نزلت عليها الصاعقة من السماء دكَّتْ عروشها ، وجعلت عاليها سافلها ، فوقع العرش أولاً ، ثم تهدَّمتْ عليه الجدران .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) ﴾ [الكهف] بعد أن ألجمتْه الدهشة عن الكلام ، فراحَ يضرب كفّاً بكفٍّ ، افاق من دهشته ، ونزع هذا النزوع القوليّ الفورى : ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) ﴾ [الكهف] يتمنى أنه لم يشرك بالله أحداً ؛ لأن الشركاء الذين اتخذهم من دون الله لم ينفعوه ، لذلك قال بعدها :

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) ﴾

أى : ليس لديه أعوان ونُصراء يدفعون عنه هذا الذى حَلّ به ، ويمنعون عنه الخراب الذى حاقَ بجنته ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) ﴾ [الكهف] أى : ما كان ينبغى له أن ينتصر ، ولا يجوز له الانتصار ، لماذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

هنالك : أى فى وقت الحالة هذه ، وقتَ أنْ نزلتْ الصاعـقة من السماء ، فأتـتْ على الجنة ، وجعلتـها خـاوية على عروشـها ، هنالك تذكّـر المنعمَ وتمنّى لو لم يشرك بالله ، فقوله : ﴿هُنَالِكَ﴾ أى : فى الوقت الدقيق وقت القمة ، قمة النكَد والكدَر .

و﴿هُنَالِكَ﴾ جـاءت فى القرآن فى الأمـر العـجـيب ، ويدعو إلى الأمـر الأعجب ، من ذلك قصة سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ لما دخل على السيدة مريم ، فوجد عندها رزقاً : ﴿قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران]

وكان زكريا ـ عليه السلام ـ هو المتكـفّل بها ، الذى يُحضر لها الطعام والشراب ، فلمـا رأى عندها أنواعاً من الطعام لم يَأْتِ بها سـألها من أيْن ؟ فقـالت : هو من عند الله إن الله يرزق مَنْ يشاء بغـير حسـاب ، فأطمع هذا القولُ زكريا فى فـضل الله ، وأراد أن يأخذ بالأسباب ، فـدعا الله أن يرزقه الولد ، وقد كانت امرأته عاقراً فقال تعالى :

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران]

و(الوَلاَيةُ) أن يكون لك وَلىٌّ ينصرك ، فـالولىّ هو الذى يليك ، ، ويدافع عنك وقت الشـدة ، وفى قـراءة أخـرى [1]: (هُنَالكَ الْوِلاَيَةُ) بكسـر الواو يعنى الملك ، كما فى قوله : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

وقوله : ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا .. ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف] لأنه سيجـازى على العمل

---

(١) قال القـرطبى فى تفـسيره (٤١٤٢/٥) : « قـرأ الأعمش وحـمزة والكسـائى « الولاية » بكسر الواو ، والباقـون بفتحها ، وهما بمـعنى واحد كالرَّضاعة والرِّضـاعة . وقيل : الولاية بالفتح من الموالاة ، وبالكسر يعنى السلطان والقدرة والإمـارة . وقال أبو عبيد : إنها بفتح الواو للخالق ، وبكسرها للمخلوق » .

الصالح بثواب ، هو خير من الدنيا وما فيها ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا ۝٤٤﴾ [الكهف] أى : خير العاقبة بالرزق الطيب فى جنة الخلد .

هكذا ضرب الله تعالى لنا مثلاً ، وأوضح لنا عاقبة الغنىّ الكافر ، والفقير المؤمن ، وبيَّن لنا أن الإنسان يجب ألاّ تخدعه النعمة ولا يغرّه النعيم ؛ لأنه موهوب من الله ، فاجعل الواهب المنعمَ سبحانه دائماً على بالك ، كى يحافظ لك على نعمتك وإلا لكُنْتَ مثلَ هذا الجاحد الذى استعلى واغترّ بنعمة الله فكانت عاقبته كما رأيت .

وهذا مثل فى الأمر الجزئى الذى يتعلق بالمكلّف الواحد ، ولو نظرتَ إليه لوجدتَه يعمُّ الدنيا كلها ؛ فهو مثال مُصغَّر لحال الحياة الدنيا ؛ لذلك انتقل الحق سبحانه من المثل الجزئىّ إلى المثل العام ، فقال تعالى :

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ(١) وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يوضح المجهول لنا بما عُلم لدينا . وأهل البلاغة يقولون : فى هذه الآية تشبيه تمثيل ؛ لأنه سبحانه شبَّه حال الدنيا فى قصرَها وسرعة زوالها بالماء الذى نزل من السماء ، فارتوتْ به الأرضَ ، وانبتتْ ألواناً من الزروع والثمار ،

(١) تذروه الرياح : تفرقه . قاله أبو عبيدة . وقال ابن قتيبة : تنسفه . وقال ابن كيسان : تذهب به وتجيء . وقال ابن عباس : تديره . قال القرطبى فى تفسيره (٤١٤٣/٥) « والمعنى متقارب » .

ولكن سرعـان ما يذبلُ هذا النبـات ويصير هشـيماً مُـتفتـتاً تذهب به الريح .

وهذه صورة - كمـا يقولون - منتزعة من مُتـعدِّد . أى : أن وجه الشبـه فيهـا ليس شيئـاً واحداً ، بل عدَّة أشـياء ، فإن كـان التشبـيه مُركّبـاً من أشيـاء متعـددة فهو مَـثَل ، وإنْ كان تشـبيه شيء مـفرد بشيء مفـرد يُسمُّـونه مثْل ، نقـول : هذا مثْل هذا ، لذلك قـال تعالى ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل] ؛ لأن لله تعالى المثل الأعلى .

وهكذا الدنيـا تبدو جمـيلة مُزهرة مُـثمـرة حُلْوة نَضرة ، وفـجأة لا تجد فى يديك منها شيئاً ؛ لذلك سماها القرآن دُنْيا وهو اسم يُوحى بالحقارة ، وإلا فأىّ وصف أقل من هذا يمكن أن يصـفها به ؟ لنعرف أن ما يقابلها حياة عُليا .

وكأن الحق سـبحـانه يقول لرسوله ﷺ : كـما ضربـتُ لهم مَثَل الرجلين وما آل اليه أمرهما اضرب لهم مـثل الحياة الدنيا وأنها تتقلَّب بأهلها ، وتتبدل بهم، واضرب لهم مثلاً للدنيا من واقع الدنيا نفسها .

ومعنى ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف] أى : اختلط بسـببه نبات الأرض ، وتداخلَ بعضُه فى بعض ، وتشابكتْ أغصانه وفروعه ، وهذه صورة النبات فى الأرض الخصْبـة ، أما إنْ كانت الأرض مالحة غير خِصْبة فإنها تُخرج النبات مفرداً ، عود هنا وعود هناك .

لكن ، هل ظل النـبـات على حـال خُـضْـرته ونضـارته ؟ لا ، بل سرعان مـا جفَّ وتكسَّر وصار هشيـماً تطيح به الريح وتذروه ، هذا مثلٌ للدنيا حين تأخذ زخرفها وتتزيَّن ، كما قال تعالى :

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا.. ﴿٢٤﴾﴾ [يونس]

ثم يقول تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف] لأنه سبحانه القادر دائماً على إخراج الشيء إلى ضدّه ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون]

فقد اقتدر سبحانه على الإيجاد ، واقتدر على الإعدام ، فلا تنفكّ عنه صفة القدرة أبداً ، أحيا وأمات ، وأعزّ وأذلّ ، وقبض وبسط ، وضَرَّ ونفع ..

ولما كان الكلام السابق عن صاحب الجنة الذى اغترّ بماله وولده فناسب الحديث عن المال والولد ، فقال تعالى :

﴿الْمَالُ(1) وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

تلك هى العناصر الأساسية فى فتنة الناس فى الدنيا : المال والبنون ، لكن لماذا قدَّم المال ؟ أهو أغلى عند الناس من البنين ؟ نقول : قدَّم الحق سبحانه المال على البنين ، ليس لأنه أعزُّ أو أغلى ؛ إنما لأن المال عام فى المخاطب على خلاف البنين ، فكلُّ إنسان لديه المال وإنْ قلّ ، أما البنون فهذه خصوصية ، ومن الناس مَنْ حُرِم منها .

كما أن البنين لا تأتى إلا بالمال ؛ لأنه يحتاج إلى الزواج والنفقة لكى يتناسل ويُنجب ، إذن : كل واحد له مال ، وليس لكل واحد

---

(١) المال : ما ملكته من جميع الأشياء . قال ابن الأثير : المال فى الأصل ما يُملك من الذهب والفضة ، ثم أطلق على كل ما يُقتنى ويُملك من الأعيان ، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل لأنها كانت أكثر أموالهم . [لسان العرب - مادة : مول] .

بنون ، والحكم هنا قضية عامة ، وهى : ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٤٦)﴾ [الكهف]

كلمة (زِينَةُ) أى : ليست من ضروريات الحياة ، فهو مجرد شكل وزخرف ؛ لأن المؤمن الراضى بما قُسِمَ له يعيش حياته سعيداً بدون مال ، وبدون أولاد ؛ لأن الإنسان قد يشقَى بماله ، أو يشقى بولده ، لدرجة أنه يتمنى لو مات قبل أن يُرزقَ هذا المال أو هذا الولد .

وقد باتت مسألة الإنجاب عُقْدة ومشكلة عند كثير من الناس ، فترى الرجل كَدِراً مهموماً ؛ لأنه يريد الولد ليكون له عِزْوة وعزّة ، وربما يُرزَق الولَد ويرى الذُّلَّ على يديه ، وكم من المشاكل تُثارَ فى البيوت ؛ لأن الزوجة لا تنجب .

ولو أيقن الناس أن الإيجاد من الله نعمة ، وأن السَّلْب من الله أيضاً نعمة لاستراح الجميع ، ألم نقرأ قول الله تعالى :

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الشورى]

إذن : فالعُقْم فى ذاته نعمة وهبَة من الله لو قبلها الإنسان من ربه لعوَّضه الله عن عُقْمه بأنْ يجعل كل الأبناء أبناءه ، ينظرون إليه ويعاملونه كأنه أبٌ لهم ، فيذوق من خلالهم لذَّة الأبناء دون أن يتعب فى تربية أحد ، أو يحمل هَمَّ أحد .

وكذلك ، الذى يتكدر لأن الله رزقه بالبنات دون البنين ، ويكون كالذى قال الله فيه : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(٥٨)﴾ [النحل]

إنه يريد الولد ليكون عِزْوة وعِزّة . ونسى أن عزة المؤمن بالله لا بغيره ، ونقول :والله لو استقبلت البنت بالفرح والرضا على أنها هِبَة من الله لكانتْ سبباً فى أن يأتى لها زوج أبرّ بك من ولدك ، ثم قد تأتى هى لك بالولد الذى يكون أعزّ عندك من ولدك .

إذن : المال والبنون من زينة الحياة وزخرفها ، وليسا من الضروريات ، وقد حدد لنا النبى ﷺ الدنيا ، فقال : « من أصبح مُعَافىً فى بدنه ، آمناً فى سِرْبه - أى : لا يهدد أمنه أحد - وعنده قُوت يومه ، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها »[1]

فما زاد عن ذلك فهو من الزينة ، فالإنسان - إذن - يستطيع أن يعيش دون مال أو ولد ، يعيش بقيم تعطى له الخير ، ورضاً يرضيه عن خالقه تعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾ [الكهف]

لأن المال والبنين لن يدخلا معك القبر ، ولن يمنعاك من العذاب ، ولن ينفعك إلا الباقيات الصالحات . والنبى ﷺ حينما أُهديَتْ إليه شاة ، وكانت السيدة عائشة - رضى الله عنها - تعرف أن رسول الله يحب من الشاة الكتف[2] ؛ لأنه لَحْم رقيق خفيف ؛ لذلك احتفظتْ

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٤٦) ، وابن ماجه فى سننه (٤١٤١) والحميدى فى مسنده (٤٣٩) من حديث عبيد الله بن محصن الأنصارى وكانت له صحبة . قال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

(٢) قال ابن عباس : « كان أحب اللحم إلى رسول الله ﷺ الكتف » أخرجه أبو الشيخ الأصبهانى فى « أخلاق النبى » (ص ٢٠١) وأورده السيوطى فى « الجامع الصغير » (٥/٨٥) وعزاه لأبى نعيم عن ابن عباس ، وأشار إليه بالضعف ، وأخرجه البخارى (٤٧١٢) بنحوه عن أبى هريرة قال : « أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه » .

لرسول الله بالكتف وتصدَّقت بالباقى ، فلما جاء ﷺ قال : « ماذا صنعت فى الشاة » ؟ قالت : ذهبتْ كلها إلا كتفها ، فضحك ﷺ وقال : « بل بقيت كلها إلا كتفها »[1].

وفى حديث آخر قال ﷺ : « هل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليْتَ ، أو تصدَّقْتَ فأبقيْتَ »[2].

وهذا معنى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف]

والسؤال الذى يتبادر إلى الذِّهْن الآن : إذا لم يكُنْ المال والبنون يمثلان ضرورة من ضروريات الحياة ، فما الضروريات فى الحياة إذن ؟ الضروريات فى الحياة هى كُلُّ ما يجعل الدنيا مزرعة للآخرة ، ووسيلة لحياة باقية دائمة ناعمة مسعدة ، لا تنتهى أنت من النعيم فتتركه ، ولا ينتهى النعيم منك فيتركك ، إنه نعيم الجنة .

الضروريات - إذن - هى الدين ومنهج الله والقِيَم التى تُنظم حركة الحياة على وَفْق ما أراد الله من خلق الحياة .

ومعنى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف] مادام قال (وَالْبَاقِيَاتُ) فمعنى هذا أن ما قبلها لم يكُنْ من الباقيات بل هو زائل بزوال الدنيا ، ثم وصفها بالصالحات ليفرق بينها وبين الباقيات السيئات التى يخلدون بها فى النار .

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف] خير عند مَنْ ؟ لأن كل مضاف إليه يأتى على قوة المضاف إليه ، فخَيْرك غير خير مَنْ هو أغنى منك ، غير خير الحاكم ، فما بالك بخير عند الله ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . قال الترمذى : « حديث صحيح » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٢٤ ، ٢٦) ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه .